مكتبة دير الزعفران كتاب بركيفا في تفسير الاسرار عرَّبهُ اصلان الآمدي

١٨٨ ﴿برصنوفيوس﴾ هو القديس الناسك من نسَّاك الصعيد في القرن الرابع للمسيح . في كتاب مكتبتنا الشرقيَّة المقرون «بالستان في احاد ٥ الرسل» يوجد «اقوال للقديس برصنوفيوس» . وكذلك في كتاب نسكيَّات مار باسيليوس في آخره (ص ٤٣٥—٤٣٨) «تعليم القديس برصنوفيوس»

١٨٩ ﴿بركو﴾ الاب كرلس اليسوعيّ المتوفى سنة ١٧٩٤ لهُ في مكتبتنا تساعيَّة تأمُّلات استعداداً لعيد قلب يسوع الاقدس . وقد طبعت سنة ١٨٨٧ في كتاب الكنز بن الانفسين في العبادة لقلبي يسوع ومريم الاقدسين

١٩٠ ﴿برلام ويواصف﴾ ذكر هذا الكتاب ابو البركات بن الكبر في فهرسهِ (Riedel. p. 663) قال: هو كتاب ينير العقل بنور لا يخبو للشيخ برلام وابن الملك يواصف داخل بلاد الحبشة الى بلاد القدس نقلهُ راهب قديس وهو يوحنَّا الدمشقي الذي نسك في دير مار سابا . من هذا الكتاب عدَّة نسخ في مكاتب باريس ورومية وحلب وفي مكتبة الآباء الكبوشيين في الثغر ومكتبتنا الشرقيَّة وفي مكتبة الصلاحيَّة للآباء البيض (Or. Chr. 1914, 213) . وليس هذا الكتاب للقديس يوحنا الدمشقي وانما هو في الاصل قصَّة هنديَّة تصرَّف بها بعض الرهبان . ويعرف اليوم اصلها في السنسكريتيَّة وقد طُبع معرَّباً في بمباي سنة ١٣٠٦هـ باسم كتاب بلوهر وبرذلسف ومنهُ نسخة خطية في مكتبتنا موافقة لهذا الاصل المندي (لها صلة)

حبيس فرنسوي في لبنان

المسيو فرنسوا دي شَطويل (١٦٣٣—١٦٤٤)

لحضرة القس بطرس ساره الراهب اللبناني (تتمَّة)

وداع فرنسوا للعالم واستمراره لعبَّة الحياة

لم يستطع فرنسوا ان يحقق امنيَّتهُ بالاعتزال التام عن البشر في اوَّل احتلالهِ في

لبنان لاحتياجه لدرس السريانيّة لقة الموارنة الكنسيّة والعربيّة لفتهم الدارجة . فبقي في دير مار يعقوب باهدن في رفقة الرهبان الفرنسيسيين المرموفين بالسيكولتيّة (Soulmont) الذين كانوا في تلك الأيام ساكنين فيه كما تسكن الرهبان الكبوشيّون دير مار قبريان القريب منهُ

فانقطع دي شطوريل الى درس تينك اللغتين فنال منهما بعد قليل ما مكّنهُ من قراءتهما وفهم نصوصها بمساعدة المطران جرجس عميرة

وكان خبر هذا العابد الاجنبيّ قد انتشر بسُرعة في انحاء الجبل لاسيّما في جبّة بشرّاي وبلاد طرابلس والبترون فارسل السيّد البطريرك يوحنّا مخلوف وكثير من الاساقفة وفوداً من قبلهم ليأتوا عليه . ثم اقبل كثير من وجوه الشعب وشيوخ لبنان لزيارته والترحيب به مبتهجين برؤيته في جبلهم وعارضين عليه خدماتهم . فكان دي شطوريل يشكرهم على لطفهم ويحملهم بمثالهِ وكلامهِ الى الافكار العالويّة وعالم الروح

ولعلهِ بانّ العادة في البلاد أن الغريب اذا زار الاعيان يقدّم لهم بعض الالطاف والهدايا انتظر مدّةً قبل ان يردّ الزيارات وربّما تأتّى من اوربّة ما كان اوصى بهِ اهلهُ من تلك الجهات . فلمّا وصلت قام بذلك الواجب فزار اوّلاً حاكم البلاد الامير فخر الدين المعنيّ والشيخين ابي نوفل وابي نادر الخازنيين اللذين كانا في خدمتهِ وخدمة آل معن . ثم سار الى دير قنّوبين حيث استقبلهُ بكل سرور البطريرك يوحنّا مخلوف واضطرّهُ الى قبول ضيافته بضعة أيام

فسُرّ بما وجدهُ في ضيفه وبل لبنان من العلم الواسع والتقى العظيم وتباحثا طويلاً بالامور الروحيّة والحياة النسكيّة وهنّأهُ البطريرك بدعوته ليتخلّى عن كلّ هموم العالم وينقطع لخدمة الله وحدهُ ثمّ باركهُ بكل حنان وانعطاف والتمس منهُ ان يذكرهُ امام الله

خرج فرنسوا وقلبهُ مفعم برغبة الكمال واراد ان يقدّم على تحقيق نيّتهِ زيارة ارز لبنان لما ورد مراراً من وصفهِ في الكتاب المقدّس ثمّ عاد الى اهدن وباشر هناك رياضةً روحيّة ليعرف بالتمام ارادة الله منهُ ليقوم بها بكل حرص ونشاط لا يحيد عنها البتّة

فخرج من تلك الرياضة كالجندي الباسل المستعدّ لنزال اعداء نفسهِ وكسر شوكتهم . ولئلّا يبقى لهُ ادنى علاقة بالعالم اطلق سراح خادمٍ كان تبعهُ قانعاً بحاجاتهِ ليخدم هو نفسهُ بيدهِ ثمّ فرّق على الفقراء ما كان ابقاهُ من دراهم وكسوة وأثاث ولبس لبس السيّاح الخشن مستتراً برداء بسيط وعباءة حقيرة مزرّرًا بحبل ومعتمًّا بعمامة قطنيّة زرقاء وبيضاء كأفقر اهل الجبل واراد ان يتمّ ذلك بين يدي احد رهبان مار انطونيوس الكاهن ايليّا خادم رعيّة اهدن بعد ان جدّد امامهُ مواعيد معموديّتهِ ووعد ان يعيش بالحارة والانفراد مردّدًا قول النبي : ها انا ذا يا ربّ فان عبدك مستعدّ لتتميم مشيئتك

اوائل تسك فرنسوا دي شطوبن

قلّما يوجد في لبنان وادٍ بعيد النور خالٍ من السكن وضوضاء العالم كوادي قنّوبين حيث كانت محبسة قديمة للرهبان فاحتلّها بطارکة الموارنة في اواسط القرن الخامس عشر فراراً من جور الولاة . وبقرب هذا الدير دير آخر يدعى بدير سيدة حوقة ليس اقلّ منهُ وحشةً وكلاهما منقور في صخر الجبل . ففي هذا الدير سكن اوّلاً الحبيس الفرنسوي فاختار لهُ فيهِ كهفاً صغيراً مظلماً لا ينفذ اليهِ النور والهواء الّا من كوّة ضيقة تطلّ على اعماق الوادي

ففي هذه الحجرة الصخريّة جعل فرنسيس سكناه ولم يتّخذ من الاثاث الّا صندوقاً عتيقاً كان يجعل ضمنهُ كتبهُ ويستند الى طبقتهِ اذا حاول الكتابة . امّا فراشهُ فكان الحضيض يبسط عليهِ قطعةً من اللّباد ويتوسّد جزءة من الخشب . فكان يقضي هناك ساعات نهارهِ بين الصلاة والتأمل وقراءة الكتاب المقدّس فيبقى الساعات الطوال راكعاً مكشوف الرأس قانتاً لاستحضارهِ وجود الله امامهُ . ثمّ اخذ يعتاد الخلوة فلم يأكل في النهار الّا وقعةً واحدة ويصوم ثلاث مرّات في الاسبوع ممتنعاً عن اكل اللحم وراضياً بما يعطى لهُ من الحسنات

وكان يلزم السكوت طول يومهِ الّا اذا اتاهُ زائرًا القس الياس السابق ذكرهُ . فان هذا الراهب الفاضل الذي دعاهُ الدويهيّ في تاريخ الموارنة (ص٢١٣) « القس الياس بن الحاج حنّا من عائلة الصراصرة » . فكان فرنسوا يسترشدهُ في حياتهِ الروحيّة ويُسَرّ بمناجاتهِ . لكن بُعدهُ منهُ كان يحرمهُ التمتّع بحديثهِ المتواتر

وفي تلك الاثناء خرج الرهبان الفرنسيسيُّون من دير مار يعقوب في اهدن وسكنوا دير مار توما في حصرون ثمَّ نزلوا بعد سنتين الى طرابلس فبقي الدير خالياً في ملك رهبان مار انطونيوس . فدعا الاب الياس تلميذهُ الى السكنى فيهِ ليكون في جوارهِ . فرضي فرنسوا بدعوتهِ وانتقل الى دير مار يعقوب واختار لهُ كما في سيدة حوقا غرفةً منقورة في الصخر مشرفة على الوادي نورها ضئيل وبردها في الشتاء قارس فحبس نفسهُ فيها دون ان يخرج منها الَّا بامر مرشدهِ او لضرورة قاصية

واعتاد لبس المسح وتشدَّد على نفسهِ في الصوم حتَّى انهُ ابى بعد مدَّة ان يذوق اللحم ثمَّ امتنع عن شرب الخمر تماماً وكذلك امتنى عن اكل السمك فاكتفى في السنين الاخيرة من عمرهِ بأكل البياض والبقول وكثيرًا ما اقتصر على اكل الخبز الحاف مع قليل من الزيتون وبعض الاثمار اليابسة لاسيَّما في ايَّام الصوم الكبير التي كان يقضيها في كلّ ضروب الاماتات والتقشفات

على انَّ هذه العيشة الصارمة اثَّرت في صحَّتهِ فانتهكت قواهُ ومرض مرضاً عُضالًا كاد يُودي بحياتهِ واذ عُرض عليهِ ان يعودهُ الاطبَّاء لم يرضَ بذلك مفوِّضاً امرهُ الى الله الذي لم يُخيِّب املهُ . وكان التجَّار الفرنسويُّون من طرابلس يأتون لزيارتهِ ويقدِّمون لهُ مهما شاء من الالطاف امَّا هو فكان لا يقبل منها شيئاً او يفرِّقهُ على الفقراء اذا خاف ان يكدِّرهم برفضهِ لها

وكان عرفُ قداستهِ قد انتشر في لبنان فكان الاهلون يأتون اليهِ ويدعونهُ الحبيس القدِّيس فكان فرنسوا اذا الحَّ عليهِ الاب الياس يخرج اليهم ويحضُّهم على خدمة الله وتربية اولادهم ويصلِّي على مرضاهم فيُشفون ببركة صلاتهِ

امَّا شغلهُ فكان الاستحرار بالصلاة ثمَّ درس الاسفار المقدَّسة واعمال الآباء وكان يطالع التوراة في اصلها العبراني امَّا العهد الجديد فكان يقرأهُ بالسريانيَّة وكان مرشدهُ الاب الياس اهداهُ نسخةً منهُ نقلها عن مخطوط على رقّ يرتقي الى القرن السادس للمسيح . فكان يقابل بين هذه النصوص ويحرِّر عليها ملحوظاتهِ

ما جرى في لبنان من الحوادث في عهد دي شطوبل

لما وصل فرنسوا دي شطوبل الى لبنان كان الجليل يتمتَّع بالامان والخصب بفضل فخر الدين بن قرقماز المعنيّ المعروف بالكبير الذي كان مدَّ حكمهُ على جميع

مقاطعات لبنان بعد ان اخضع لسلطانه آل سيفا في شمالي لبنان وكان فخر الدين يحبُ النصارى ويطلق لهم الحرّيّة في دينهم وامور دنياهم ويتّخذهم عمّالًا لدولته لاسيما شيوخ آل الخازن الذين كانوا في صغره انقذوهُ من اعدائه بعد وفاة والده

فلا مرَّ على ضيف لبنان سنةٌ حتّى انقلبت الامور ظهرًا لبطن فانَّ السلطان مراد الرابع كان يتربَّص الفرصة ليوقع ببني معن الذين كانوا غير مرَّة كسروا عساكر الدولة واذلُّوا ولاتها. ففي ايلول من السنة ١٦٣٣ ارسل السلطان اسطولًا لمحاربتهم يقودهُ جعفر باشا فنزلت جنودهم البرّ وخرجت عساكر الشام تحت قيادة كوجك احمد باشا في الوقت عينه حتى ضاقت السبل على المعنيين واصحابهم وتفرّقوا ايدي سبا واختفى فخر الدين في قلعة نيحا المروفة بشقيف تيرون

وصارت حينئذٍ امور الجبل على اسوأ حال وانتشبت الحروب بين القيسيين واليمنيين وبين الامراء والولاة فنفذت العساكر الى لبنان وشملت الرعبة اهلهُ حتّى خرجوا من قراهم وتفرّقوا في انحائه الحريزة ومشارفه

فبلغ الخبر مسامع فرنسوا دي شطويل والحَّ عليه الناس ليفوز بنفسه ويهرب معهم فأبى ان يخرج من محبسته. وكان القس الياس مرشدهُ اراد ايضاً ان يلزم دير مار يعقوب لكنهُ رأى في انفراده عن رعيَّته خطرًا فأقنع الحبيس بان يسير في رفقته الى اعالي الجبل ليكونا في مأمن على حياتهما. فتوغّلا في الجبل ووصلا الى اماكن وعرة صعبة المرتقى ذات مغاور لا يهتدي اليها احد فباتا فيها يقتاتان من الاعشاب لكنهما لم يجدا فيها ماء فأنهكهما العطش. فتقدَّم القس الياس الى رفيقه بان يطلب من الله الفرج من كربتهما فصلّى الحبيس واذا بنبع انبجس بقرب المغارة باعجوبة ظاهرة شهد عليها القسّ الياس واخبر بها الرهبان الكرمليين. وبقي ذاك النبع جارياً فعُرف بنبع الحبيس

على انَّ الامور ما لبثت ان هدأت نوعاً باستيلاء عساكر الدولة على سواحل الشام واملاك بني معن فيها فعاد كوجك احمد باشا الى دمشق واخذ اللبنانيّون بالرجوع الى قراهم قبل الشتاء. وعاد ايضاً الى مار يعقوب القسّ الياس مع رفيقه بعد ان خرج من محبسته موغوماً

وفي تلك الاثناء توفّي البطريرك يوحنا مخلوف في ١٥ كانون الاوّل وتأخّر

انتخاب خلفهِ الشهيد جرجس عميرة مطران اهدن الى ٢٧ من الشهر . فسُرَّ دي شطويل بارتقائهِ الى السدَّة البطريركيَّة كما كان تنبَّأ لهُ بذلك

لكنَّ الاحوال السياسيَّة كانت بعد انسحاب فخر الدين تحوَّلت الى شبه فوضى في جنوبيّ لبنان وجهات طرابلس فقضى اللبنانيُّون السنة ١٦٣٤ في اضطراب والعمَّال يتقاضونهم بالضرائب الباهظة ويضايقونهم في معاملاتهم . وزاد خوفهم اذ بلغ حصار والي دمشق لقلعة نيحا وقبضهِ على الامير فخر الدين في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٦٣٤ الذي أُرسل مع اولادهِ موثقاً الى اسلامبول حيث قُتل في السنة المقبلة

فبلغت هذه الاخبار مسامع اهل لبنان فاقشعرَّت لها فرائصهم وصمَّموا العزم على الهرب من مساكنهم كما فعلوا في العام السابق . لكنَّ الحبيس القديس رأى في هربهم آفةً قاضية على وطنهم فصرف كلَّ جهدهِ في تهدئة روعهم ومَنْعهم من هجر ديارهم فبعد ان التجأ الى الله بالصلاة واتَّخذ مشورة مرشدهِ خرج مسرعاً من محبستهِ ونزل الى قنُّوبين ونشد الله السيِّد البطريرك والاساقفة ألَّا يسمحوا لاهل الجبل مغادرة منازلهم فلبَّوا دعوتهُ وصار هو يطوف في القرى ويطمئن الاهلين ويعدهم خيراً ان ثبتوا في مساكنهم فكان لكلامهِ احسن وقع وحقَّق لله مواعيدهُ فلم يُعَب الجبل بأذًى

استئناف فرنسوا عيشة النسكية

شكر الحبيس القديس الله على صيانة لبنان من بلايا الهاجرة وعاد هو مسرعاً الى قلَّايتهِ ليواصل فيها عباداتهِ وإماتاتهِ مرتشداً بتدبير لبيبهِ الروحي القس الياس

وكان تجوُّل فرنسوا في جهات لبنان لتأمين اهلهِ ألفت اليهِ انظار العموم فكان الناس يقصدونهُ تبرُّكاً وتقرُّباً الى الله لكن الحبيس القديس كان يبالغ في التخلِّي والتحصُّن في محبستهِ لايرضى بغير مناجاة الله والتفرُّغ لدرس الاسفار المقدَّسة . فكان يجد في مطالعتها واستنساخها بيدهِ لذَّةً غريبة تشغلهُ عن كلِّ ما سواه . وكأن الله منحهُ في ذلك نعمةً خاصَّة فتحت لهُ مكنونات تلك الكتب المنزلة فيتلقَّاها بمزيد الوَرَع مكشوف الراس جاثياً على ركبتيهِ

فلمَّا رأى صدرٌ الجنِّ البشري ما صار اليهِ فرنسوا من مظلم الحندسة حاول ان يصطادهُ بفخاخهِ او يناجزهُ القتال فيقهرهُ فكان تارةً يحمي بأن يجب اليهِ

الاختلاط باهل العالم وحيناً يجربهُ بالبُعد الباطل واذ كان القديس لا يكترث لتسويلاته ومكايده صار يظهر لهُ ويزعجهُ بمناظر مخيفة وبضجيج مهول. وبلغت قحتهُ الى أن اوسعهُ ضرباً ولكماً وملأ قلايتهُ من البراغيث لكنَّ الحبيس صبر على تلك المشقَّات وثبت في عباداتهِ وتقشُّفاتهِ فارتدَّ عنهُ ابليس مخزياً مقهوراً

وكان الاحداث يحاولون التقرُّب منهُ لتقبيل يدهِ فكان فرنسوا يُسَرّ ببساطتهم وطهارة قلوبهم فكان يعلمهم الصلاة ويرشدهم الى الفضيلة . فلمَّا رأى اهلهم ما يجنيهِ اولادهم من تعاليمهِ الصالحة طلبوا اليهِ ان يجمعهم كلَّ يوم فيعلمهم مبادئ الدين تعليماً منظماً . فرضي بذلك باغراء الاب الياس املاً منهُ بان تنشأ تلك الاغراس النضرة على ناموس التقى والصلاح. فكان كلَّ يوم يقودهم تحت سنديانة كبيرة وهناك يلقنهم الصلوات الدينيَّة ويشرح لهم العقائد المسيحيَّة . وكثيراً ما كان اهل الاولاد ينضمُّون اليهم ليسمعوا تعاليم الحبيس ويستشيروهُ في امر خلاصهم فيجدون في مشورتهِ نوراً وسلواناً

وكان القنصل الفرنساوي المسيو فور (S^r Faure) ممَّن يتردَّدون اليهِ ويكرمونهُ فيأتي باصحابهِ الى زيارتهِ فيعودون كلُّهم مطرئنين قداستهُ وتجرُّدهُ التام عن حطام العالم .

انتقال الحبيس الى دير مار سركيس

في ١٣ تشرين الاوَّل من السنة ١٦٣٨ توفي في قنوبين مطران اهدن عبدالله الاهدني فوقع الاختيار ليخلفهُ على كرسيهِ على القسّ الياس بن حنَّا مرشد فرنسوا دي شطويل فترك دير مار يعقوب ليسكن في دير مار سركيس في رأس النهر على تلّ هناك قريب من الارز يُطلّ على اهدن فعرض على الحبيس صديقهُ ان يبرح دير مار يعقوب ويسكن معهُ في مار سركيس وهناك قلاية حقيرة فقيرة كقلايتهِ في مار يعقوب والمحلّ ابعد من ضوضاء الناس لانفرادهِ . فوافقهُ على فكرهِ وانتقل اليهِ مسروراً وثبت في هذا الدير على كلّ ممارساتهِ التقويَّة ونسكيَّاتهِ يحيي ليلهُ بالصلاة ويقضي نهارهُ بدرس الروحيَّات او مفاوضة المطران الياس في الامور العلويَّة

وبعد سنتين اضطرَّ المطران ان يرجع ويسكن في اهدن فدعا الناسك الى مرافقتهِ فلم يشأ بعد ان استطاب سكنى دير مار سركيس. ووجد فيهِ من النعم ما حبَّبهُ اليهِ فبقي منفرداً الَّا انَّ مرشدهُ كان يأتي اليهِ حيناً بعد حين فيصرفان الساعات

الشائقة في المذيذ بالله والشؤون الدينيَّة

وفي غضون ذلك ارسلت الدولة محمد باشا المعروف بالارناؤط فولَّتهُ على طرابلس وكان هذا رجلاً فظاً ظالماً عدوًّا للنصارى فقتل شيخَ الجبَّة لما كرم الحدثي بعد ان عرض عليه جحود دينهِ فأبى. وجرى ضيق عظيم على اهل الجبل فاضطرُّوا الى الفرار من اوطانهم ولم يشأ الحبيس القديس ان يتبعهم فبقي في قلاية مار سركيس وما عتَّم ان انقطعت عنهُ الحسنات الزهيدة التي كان يعيش منها اي كِسَر الخبز وبعض الاثمار اليابسة كان يأتي بها اليهِ راهب شيخ من الجوار. فاكتفى مدَّة ايام بالماء وبعض الاعشاب البرِّيَّة

فلمَّا قضى الله بالفرج وعاد الاهلون الى منازلهم وعرفوا ما قاساهُ ضيفُهم البارّ ازدادوا لهُ اكراماً وكانوا يحجُّون الى محبسهِ لطلب بركتهِ ولثم اطراف ثوبهِ وغما خبرهُ الى الاجانب من مسلمين واتراك ودروز فصاروا كالنصارى يقصدونهُ لينالوا بركتهُ. امَّا القديس فكان يستقبلهم بلطف ولا يكلِّمهم سوى بامور الله وخلاص نفسهم فيحيك كلامهُ في صدورهم ويعودون بالثناء على قداستهِ وكان البعض منهم يلتمسون منهُ ان يبارك على الماء ليشربهُ مرضاهم فيشفون. وقد نجا احد اللبنانيين من داء الكلب بشربهِ من الماء المذكور

وقد ورد هنا في سيرة الترجم لركيبي (ص ٢٤٢—٢٦٣) رواية في الترابة بمكان ومثلهُ رواها الرحالة دي لاروك (٢ : ٢٢٨—٢٣٢) يزعم كلاهما انَّ البطريرك جرجس عميره انتقل الى جوار ربِّه فاجتمع الاكليروس الماروني مع الاعيان واتَّفقوا على اختيار الحبيس دي شسطويل كخلَفٍ لهُ على كرسيهِ. ولا نعلم الى اي سندٍ يستندان في هذه الرواية وممَّا لا يُنكر انَّ البطريرك جرجس عميره مات في ٢٩ تموز ١٦٤٤ في قنُّوبين شهرين ونصف بعد وفاة فرنسوا دي شسطويل فكيف امكن ان تُعرَض البطريركيَّة عليهِ وهو المتوفى قبلهُ. فننبذ اذن هذه القصَّة نبذ النواة ونعدُّها في جملة الاوهام الباطلة التي اشاعها البعض تعظيماً لفضل حبيسنا وهو في غنًى عنها

انتقال فرنسوا الى دير مار الشمّاع ووفاته

كان مرَّ على فرنسوا نحو عشر سنوات في التنسُّك دون ان ينقطع عن حبستهِ

الشظفة الّا انّ جسمهُ كان حصل على ضنك وضعف ليس لديهِ من يتمّ بامورهِ . وكان الآباء الكرمليتان قد احتلّوا منذ السنة ١٦٣٣ دير مار الياشع فوق بشرّاي المطلّ على وادي قاديشا العميق . فلمّا صارت رئاستهُ في عهدة الاب شلستين المتمي الى القديسة لودفين وهو معرّب كتاب الاقتداء بالمسيح فكّر في نقل فرنسوا دي شسطويل من دير مار سركيس الى دير رهبانيّتهِ فيكون لاخوتهِ مثال الفضائل باجمعها

وكانّ الاب شلستين تلقّى هذا الفكر من الله فذهب مع اثنين من شيوخ الجبل ليعرضهُ على حبيسنا وهو ينتظر منهُ معاكسةً . فما اشدّ ما كان دهشهم اذ انقاد اليهم فرنسوا دون صعوبة واخبرهم انّهُ رأى في الحلم راهباً كرمليًّا يشبهُ الاب شلستين وهو يقول لهُ : ما بالك ساكتاً هنا . هلمّ اتبعني . فعرف بمجيء الاب الكرملي انّ قدومهُ حصل بمشيئة الله ورضاهُ . فخرج معهم وذلك في اواخر شهر تشرين الثاني ١٦٤٣ وستّة اشهر قبل وفاتهِ كانّ الله اراد ان يقضي ايّامهُ الاخيرة بقرب اولئك الرهبان الافاضل فيستعدّ عندهم لآخرتهِ . وكان عند خروجهِ يريد ان يسير ماشياً الى ديرهم لكنّهم لضعفهِ اضطرّوهُ الى ان يركب فرساً

وسمع اهل بشرّاي بقدوم القديس الى قرب قريتهم فخرجوا لملاقاتهِ بآلة ورونق عظيم ينشدون الاناشيد ويتزاحمون حولهُ لطلب بركتهِ

ولمّا دخل مار الياشع ورآهُ الرهبان منهوك القوى ارادوا ان يقوموا بخدمتهِ فلم يشأ البتّة بل اراد المواظبة على كلّ رياضاتهِ الروحيّة وتقشّفاتهِ المفرطة كالصّوم والسّهر الليليّ والعبادات المضنكة ولبس المسوح والمجالد ولم يرضَ الّا بعد الحاح الرئيس بتلطيف شيءٍ منها على مدّة قليلة . ولقربهِ في دير مار الياشع من الكنيسة استعرّ في العبادة الى القربان الاقدس فكان يحضر ما يقدّم هناك من الذبائح ويتقرّب الى جسد الرب أيام الاعياد اذ لم يدنُ ذاتهُ اهلًا للمناولة اليوميّة

وكان رهبان مار الياشع يشخصون الى رجل الله لعلّهم يلحظون فيهِ ما يستوجب الانتقاد والملامة لكنّهم رأوهُ في كل تصرّفهِ لا يرتشد الّا بروح الله كما شهد على ذلك الاب شلستين السابق ذكرهُ والاب توما المتمي الى القديس يوسف والاب فيليب المتمي الى الثالوث الاقدس . وكانوا يصرفون المجهود ليريح جسدهُ من تلك المشاقّ الاختياريّة والاماتات المضنكة امّا هو فكان يريد ان يقدّم نفسهُ لله محرقةً كاملة

فيعوّض للربّ عن زلّاته وعن خطايا القريب ولاسيّما عند دخول الصوم الكبير للسنة ١٦٤٤ فانّهُ قضاهُ على مثال اشدّ النسّاك زهدًا وتقشّفًا ليتشبّه بآلام المسيح. فما بلغ عيد الفصح حتّى انحلّت قواهُ وثقل عليهِ المرض وهو يرى ذلك نعمةً من الله الذي يشركهُ بصليب ابنهِ ولا يريد علاجًا سوى ان ينقلوهُ الى سطح الدير عند المساء ليستنشق الهواء البارد وهو ممدود على حصيرةٍ كالفقراء.

وانتشر خبر مرضهِ فكان الاساقفة والاذوات من الفرنج والاهلين يأتون لعيادتهِ فيرونهُ لا ينقطع عن الصلاة غائصاً في الامور السمويّة مشتاقاً الى رؤية إلههِ بانفكاك اغلال جسده فيحضّهم على السيرة المسيحيّة ومباشرة الاعمال الصالحة

ولمّا قرب عيد العنصرة ظهر في حالة المريض بعض التحسّن فأمّلوا منهُ خيرًا وانتهز الرهبان تلك الفرصة ليتفرّقوا في القرى المجاورة للوعظ ولقرائض رسالتهم وتركوا لخدمة العليل بعض الرهبان الموارنة وخصوصاً القس آدم

فبعد خروجهم بثلث ساعات عند غروب الشمس قويت عليهِ بغتةً نوبة المرض وانحطّت قواهُ فقال لمن كانوا حولهُ: اني منتقل الى رحمة الله. ثمّ اراد ان يودّع الآباء فأعلم بتفرّقهم ولم يشأ ان يرسلوا وراءهم وانّما طلب ورقة فكتب عليها وصيّتهُ الاخيرة وترك كلّ ما كان لهُ من الكتب للمرسلين الّا كتاب الانجيل السرياني فاهداهُ الى القسّ آدم

ثمّ انطرح على حصيرتهِ مسندًا رأسهُ الى حجر كعادتهِ وجعل الصليب على صدرهِ وطلب من الحضور ان يتركوهُ وحدهُ ويذهبوا الى قلاليهم ليستريحوا وكانت غايتهُ ان يبرح من هذا العالم سهلًا من الجميع فيزيد شبهاً بربّهِ على الصليب. فعند نصف الليل قام القس آدم ليقوم بخدمتهِ فوجدهُ جثّةً هامدة وذراعاهُ يضمّان الصليب على صدرهِ وشفتيهِ فظنّ طويلًا انّهُ راقد يصلّي وعلى وجههِ سمة التخشع ثمّ تحقّق وفاتهُ وكان ذلك في اوسط ليلة عيد العنصرة في ١٥ ايار من السنة ١٦٤٤

طار منعى الحبيس الفرنسويّ القديس الى اطراف لبنان بسرعة البرق فرجع الآباء المرسلون حالًا الى دير مار الياشع فزجوا دموعهم بدموع الحضور ثمّ البسوا الميت اطهارهُ بزراعاةً حلّة الفقر ولكنّهم جعلوا فوقها درع الشماسة دلالةً على طهارتهِ ومرضوهُ في كنيستهم لاكرام المؤمنين فتواردت الجموع لتقبّل يديهِ والتماس شفاعتهِ

في مقدّمتهم الاكليروس الماروني وقد ظهرت منذ ذاك اليوم عدّة كرامات على يدهِ اراد الله ان يثبت بها ما لعبدهِ عنده من الحظوة . وبعد الصلوات المألوفة بالطقسين الغربي والشرقي طلب الجمهور ان يُدفن في مدفن كان هناك مختصًا بالاساقفة فدفنوهُ مثلهم جالسًا على كرسيّ وراء المذبح الكبير

وفي اليوم الثامن لوفاتهِ أقيم جنازٌ حافل حضرهُ كثير من الاساقفة واعيان الفرنسويين من طرابلس وشيوخ لبنان والوف من الاهلين فخطب الاب شلستين في فضائل رجل الله واستوقف الدموع من كلّ المآقي . وقد وقفنا على الكتابة الضريحيّة التي علّقها على قبرهِ الآباء الكرمليّون باللاتينيّة وقد اخذها اليوم الضياع وانّما نشرها الرحّالة دي لاروك في رحلتهِ (De la Roque : I, 74-76) وهي طويلة اختصر فيها كاتبها حياة جنديّ المسيح وزهدهُ في العالم ومجدهِ ليعيش لله عيشة اشبه بعيشة الملئكة منها بعيشة البشر وختمها بقوله : انّ الطريق التي نهجها فرنسيس هي الطريق المؤدية الى الحياة

ونحن اللبنانيين نشكرهُ تعالى على ما منحهُ لجبلنا العزيز من الفخر بحلول رجل الله فيهِ فانّ حياتهُ الصالحة بيننا مدّة عشر سنوات وثّقت ما بيننا وبين الأمّة الفرنسويّة الجليلة من اواصر العصبيّة الدينيّة وروابط الحبّ المتبادل

مطبوعات شرقيّة جديدة

H. Busson, Jos. Fèvre, H. Hauser : Les principales Puissances d'aujourd'hui, 4e éd. mise à jour avec 82 gravures et 118 cartes dans le texte, Paris, librairie Alcan, in-18, 192, Prix 12f

اخصّ الدول الحالية

كان التمييز بين الدول الكبرى والصغرى سهلًا قبل الحرب الكونيّة وليس الامر كذلك حاضرًا . فان كان الجميع يعرفون انّ انكلترة وفرنسة والولايات